Ideological Representations in Abbasid Debates
A Cultural Study

Assistant Professor Dr. Hala Fathi Kazim
University of Basrah / Center for Basrah and Arabian Gulf Studies
E-mail: hale.alsaad@uobasrah.edu.iq

Abstract:

The Abbasid era witnessed a remarkable flourishing of intellectual, literary, and scientific debates. These debates emerged as a faithful mirror reflecting the deep ideological conflicts among sects, schools of thought, and cultural and social currents of that period. They were not merely intellectual or literary exercises; rather, they constituted a living representation of the struggle over identities and affiliations, as well as an expression of political, sectarian, class-based, and nationalist positions.

Keywords: ideology, debates, representations, Abbasid era, literary.

التمثلات الايديولوجية في المناظرات العباسية (دراسة ثقافية)

الاستاذ المساعد الدكتور هالة فتحي كاظم
جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: hale.alsaad@uobasrah.edu.iq

الملخص:

شهد العصر العباسي ازدهارا كبيرا للمناظرات الفكرية والأدبية والعلمية، وبرزت هذه المناظرات كمرآة صادقة تعكس الصراعات الايدلوجية العميقة بين الفرق والمذاهب والتيارات الثقافية والاجتماعية في ذلك الزمن. لم تكن هذه المناظرات مجرد تمارين عقلية أو أدبية، بل كانت تمثيلا حيا لصراع الهويات والانتماءات، وتعبيرا عن مواقف سياسية، ومذهبية، وطبقية، وقومية .

الكلمات المفتاحية: الايدلوجيا ، المناظرات ، التمثلات ، العصر العباسي، الادبي.

المقدمة:-

تُعدّ المناظرات في العصر العباسي من أكثر الأجناس النثرية دلالةً على التحوّلات الفكرية والثقافية التي شهدها ذلك العصر، إذ لم تكن مجرّد سجالات لغوية أو تمارين بلاغية، بل غدت فضاءً مركزيًا لتجاذب الإيديولوجيات المتعارضة، وتكثيف الرؤى الفكرية التي مثّلت صراعات المجتمع العباسي في بنيته السياسية والدينية والمذهبية والفلسفية. فقد تزامن ازدهار المناظرة مع اتساع رقعة الدولة العباسية، وتعدّد الأعراق، وتداخل الثقافات، واحتدام الخلافات الكلامية والفقهية، مما جعل المناظرة أداةً معرفية وسلطوية في آنٍ واحد. لقد ارتبطت المناظرات العباسية ارتباطًا وثيقًا بالمؤسسة السياسية وبحلقات العلم في المساجد وبيوت الخلفاء والوزراء، حيث تحوّلت المجالس العلمية إلى مسارح رمزية يُعاد فيها إنتاج السلطة الفكرية، وتُفرض من خلالها تصوّرات بعينها للعقيدة، والعقل، واللغة، والشرعية. وفي هذا السياق، لم يكن الخطاب المناظري بريئًا أو محايدًا، بل كان مشحونًا بتمثّلات إيديولوجية تتخفّى خلف أقنعة العقل والاحتجاج والنقل، وتسعى إلى ترسيخ أنساق فكرية بعينها، أو تقويض أنساق مضادّة. وتتجلّى الإيديولوجيا في المناظرات العباسية بوصفها نسقًا مضمرًا يُوجّه بنية الخطاب وآليات الحجاج فيه، بدءًا من اختيار الموضوعات، مرورًا بطرائق الاستدلال، وانتهاءً بصياغة صورة الخصم وتمثيله لغويًا وثقافيًا. فالمناظرات الكلامية، على سبيل المثال، لم تكن سجالات حول صفات الله أو خلق القرآن فحسب، بل كانت تعبيرًا عن صراع أعمق بين العقل والنقل، وبين سلطة الدولة وسلطة العلماء، وبين النزعة العقلانية للمعتزلة والرؤية التقليدية لأهل الحديث. كما أن المناظرات اللغوية والنحوية حملت في طيّاتها تمثّلات إيديولوجية تتصل بالهوية العربية، ومكانة اللغة في حفظ التراث، ومواجهة التأثيرات الأعجمية. ويكتسب البحث في التمثّلات الإيديولوجية للمناظرات العباسية أهميته من كونه يكشف عن العلاقة الجدلية بين الخطاب والمعرفة والسلطة، ويُعيد قراءة النصوص المناظِرة بوصفها منتجات ثقافية تتجاوز حدود الجدل الظاهر إلى بناء تصوّرات ذهنية عن الذات والآخر، وعن الحق والباطل، والعلم والجهل. فالمناظر لا يتكلّم بوصفه فردًا فحسب، بل بوصفه حاملًا لخطاب جماعي يُمثّل مذهبًا أو تيارًا أو مؤسسة، وهو ما يجعل اللغة أداةً للصراع الرمزي، لا مجرد وسيلة للإقناع. كما تتيح دراسة التمثّلات الإيديولوجية في المناظرات العباسية مقاربة النصوص التراثية من منظور نقدي حديث، يستثمر مفاهيم تحليل الخطاب، والتمثّل الثقافي، والإيديولوجيا بوصفها بنية ذهنية تُعيد إنتاج ذاتها عبر اللغة. فالنص المناظري، في هذا الإطار، يُقرأ بوصفه حقلًا تتقاطع فيه الأصوات، وتتجاذبه القوى الفكرية والاجتماعية، ويُعاد فيه تشكيل الوعي الجمعي وفق شروط تاريخية محدّدة. وانطلاقًا من ذلك، يسعى هذا البحث إلى الكشف عن آليات اشتغال الإيديولوجيا داخل المناظرات العباسية، وتحليل أنماط تمثّلها في الخطاب الحجاجي، ورصد تجلياتها في بناء الذات المناظِرة وصورة الخصم، وفي توظيف المرجعيات الدينية والعقلية واللغوية. كما يهدف إلى إبراز كيف أسهمت هذه المناظرات في ترسيخ أنساق

فكرية مهيمنة، أو في مقاومة الهيمنة ذاتها، بما يجعلها وثائق ثقافية شاهدة على صراع الأفكار في واحدة من أكثر مراحل الحضارة العربية الإسلامية حيويةً وتعقيدًا.

المبحث الأول

المناظرة كأداة فكرية وأيدلوجية

المناظرة كما يعرفها ابن منظور هي:" المباحثة والمجادلة ومن ذلك تناظر شخصان أي تباحثا وتجادلا والمناظر هو المجادل والمحاج، والمناظر هو المقابل وتناظرا أي تقابلا"(لسان العرب ، ابن منظور، ص ١٩٣). ومن النقاد من عرف المناظرة بالاعتماد على أسلوبها وطريقة الحوار فيها فقال:" إن المناظرة حوار متبادل ومناقشة في الكلام يشترك فيها اثنان أو أكثر، يمثلان اتجاهين مختلفين حول موضوع أو قضية معينة، وكل منهما يسعى إلى اثبات وجهة نظره والدفاع عنها وابطال وجهة نظر خصمه باستخدام الأدلة والبراهين مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره"(باشا العيادي، فن المناظرة ، ص ٥٢)، إذن فالمناظرة هي ضرب من الكلام يقوم على محاورة فكرية ثنائية تتناول المواضيع الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية والفلسفية وغيرها، ويكون الحوار غالبا بحضور حكم عالم بالاجراءات الحوارية واداب التناظر وبموضوع المناظرة وفي حضور أشخاص اخرين يختلف عددهم من مناظرة إلى أخرى ، كما تختلف صفاتهم فهم خلفاء أو وزراء أو أمراء أو موظفون كبار في الدولة أو علماء أو مثقفون وأيضا من العامة وبحسب اختلاف الجمهور يختلف المكان الذي تدور فيه المناظرة فقد يكون دار الخلافة أو قصور الامراء ومجالس الوزراء، أو مجالس العلماء في المساجد، أودكاكين الوراقين في الأسواق ، وقد يكون الكاتب نفسه هو الحكم عندما تكون المحاضرة تخييلية والشخصيات من صنع الكاتب نفسه .

ولما كانت الايديولوجيا تمثل مجموعة متكاملة من الأفكار والمعتقدات والقيم والمفاهيم التي تشكل رؤية للعالم وتسعى لتفسيره وتغييره .(العروي، مفهوم الايديولوجيا، ص١٥٣) ، وانها تشكل النسق الذي يحدد السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي، والاتجاهات العامة لكل سلوك، كما إنها تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي، وتعمل على توجيهه، وهي قابلة للتغير استجابة للتغييرات الراهنة . إذن هي تمثل نظام الأفكار المتداخلة للأفراد كالمعتقدات والأساطير والسياسات والتوجهات والمبادئ التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية، وتبررها وتدافع عنها، وهي قد تكون أيديولوجيا خاصة تخص فرد معين، وقد تكون أيديولوجيا عامة تخص جماعة أو جماعات أو مجتمع متكامل، وهناك في الغالب نوعين من الأيديولوجيا الأولى تمارسها الفئات المتسلطة وتتصف بلغة التزمت والفرض من أجل اخضاع الاخر واجباره على تبني

أفكارها، والثانية تمارسها الفئات الخاضعة وتتسم بلغة الدفاع والحوار والخطاب الاقناعي من أجل محاولة استمالة الاخر والحصول على فرصة لاثبات الذات .

وقد لعبت المناظرات العباسية دورا مهما في ترسيخ أو نقد أيدلوجيات متعددة ، فقد اهتم الخلفاء العباسيين خاصة في عصورهم الأولى بتشجيع النقاشات الفكرية والأدبية كما في عهد المأمون الذي كان من أبرز الداعمين للمعتزلة، وقد أمر بعقد مناظرات بين ممثلي الاتجاهات المختلفة في دار الحكمة ومجالس القصر. وقد تنوعت تلك المناظرات مابين أدبية وسياسية ودينية، وسوف نتطرق للمناظرات الأدبية تحديدا لأنها نصوص خصبة للدراسة والتحليل، ويمكن النظر إليها من زوايا مختلفة، كما إن تنوعها وسعة الثقافة لكتابها واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والسياسية والعرقية، جعل هذه النصوص جامعة لموضوعات تتعلق بالأدب والدين والسياسة وعلم الاجتماع وغيرها من الأمور، فهي بذلك تشكل ميدانا شاملا وخصبا لدراسة التمثلات الأيدلوجية للمناظرات العباسية .

المناظرات الأدبية العباسية

شكل العصر العباسي ذروة النضج الثقافي والحضاري في التاريخ الاسلامي، واتسم بتعدد مراكز المعرفة وتنوع الخطابات الأدبية، وكان من أبرز مظاهر هذا العصر ازدهار المناظرات الأدبية، التي لم تقتصر على الشعراء بل شملت الكتاب واللغويين والنحاة والبلاغيين، وقد مثلت هذه المناظرات أداة لصقل الذوق، وتثبيت المفاضلات، وإبراز التيارات الثقافية المتنافسة، بل أحيانا تمثلت فيها صراعات اجتماعية وسياسية مختلفة . وفيما يخص السياق العام للمناظرات، فقد برز فيه دور البيئة الثقافية والاجتماعية بشكل ملحوظ، إذ شهد العصر العباسي توسعا في المدارس الأدبية، وانتقال السلطة الثقافية من البادية إلى الحواضر، وبرزت بغداد وسامراء والبصرة والكوفة كمراكز حوار أدبي ونقدي، وقد دعم الخلفاء العباسيين الأدباء، وأتاحوا لهم منابر المناظرة سواء في مجالس الخلفاء أو في دواوين الكتابة. والمناظرات لم تكن مجرد سجال بلاغي بل كانت نوعا أدبيا متكاملا له بناء حجاجي وسياق تفاعلي، وأسلوب لغوي مخصوص وغالبا ما كانت تروى في كتب الأدب الشهيرة مثل الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ، والامتاع والمؤانسة للتوحيدي وغيرها .

أنماط المناظرات الأدبية وأهم خصائصها :

١. المناظرات التي دارت حول الشعراء

أشهر المناظرات في هذا الباب المناظرة التي جرت بين أنصار البحتري وأنصار أبي تمام والتي ذكرها الامدي في كتاب(الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)، وقد نجح فيه الامدي بخلق مناظرة نقدية خيالية بين جماعتين تميلان إلى اثنين من أبرز شعراء العصر العباسي، وقد بلغ هذا الجهد مكانة مهمة

في تاريخ النقد لما احتواه من حجج ، وأدوات تحليلية، وتقديم لمعايير نقدية مبكرة في تقييم الشعر. وحقيقة الامر أن المناظرة لم تكن بين شاعرين فحسب، وإنما كانت بين مدرستين أدبيتين، فأبو تمام كان يمثل مدرسة التجديد التي تجمع بين جزالة القدماء وقوة الصنعة البديعية ، والابتكار في الصور والمعاني متجاوزا التقليد مما جعل شعره يتصف بالغموض والتعقيد في كثير من الأحيان، كما دعا إلى فتح افاق جديدة في الشعر، فقد برع بالمدح والذم المبتكر(المدح بما يشبه الذم) والعكس، وغيرها من الموضوعات الجديدة مما أثار الكثير من الجدل، الأمر الذي خلق ضجة كبيرة حول شعره فاتهموه بالتكلف والسرقات والغموض والاسراف بالصنعة وعدم الوضوح . أما البحتري فقد مثل المدرسة الأدبية التي التزمت بتقليد الأقدمين ، والحفاظ على أصالة الشعر وجزالته، ووضوحه وقوته، وبعده عن التعقيد والاسراف بالصنعة . والامدي في كتاب الموازنه لا يكتب نقدا تجريديا فحسب، بل يصوغ مناظرة نقدية بين فريقين، الأول يميل إلى أبي تمام ويعتبره أفضل من البحتري، والثاني يميل إلى البحتري ويرفع قدره على أبي تمام، مع أعطاء الفرصة لكل فريق في الدفاع عن وجهة نظره، ثم وضع الموازنة بينهما وفق معيار نقدي واضح. وقد اعتمد الامدي أسلوب الحوار حيث تناقش الأطراف في نقاط محورية قبل البت في الحكم ، وقد قدم الامدي حجج الفريقين الواحدة تلو الأخرى ليكشف المشكلة النقدية الحقيقية وراء الخلاف، ولكن وبالرغم من ادعائه الحياد والموازنة العلمية ، فان قراءة نصوص الكتاب تشير إلى أن الامدي كان متعاطفا مع البحتري أكثر مما هو معلن .

أهم نقاط الخلاف التي أثارتها المناظرة في الموازنة، والتي كانت تتعلق بعدة مسائل نقدية جوهرية جذبت اهتمام النقاد هي:

١- **السرقات الشعرية/** حيث اتهم أنصار أبي تمام البحتري بأنه استقى كثيرا من معانيه منه، ومن ذلك " قال صاحب أبي تمام: كيف يجوز لقائل أن يقول: إن البحتري أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى؟ وتتلمذ له حتى قيل: الطائي الأكبر والطائي الأصغر" (الامدي ، الموازنة،ص٦)، فيرد صاحب البحتري قائلا:" وقد أخبرني أنا رجل من أهل الجزيرة يكنى أبا الوضاح وكان عالما بشعر أبي تمام والبحتري وأخبارهما أن القصيدة التي سمعها أبو تمام من البحتري عند محمد بن يوسف وكان اجتماعهما وتعارفهما القصيدة التي أولها:

فيم ابتداركما الملام ولوعا أبكيت إلا دمنة وربوعا

وأنه لما بلغ إلى قوله :

في منزل ضنك تخال به القنا بين الضلوع إذا انحنين ضلوعا

نهض إليه أبو تمام فقبل بين عينيه سرورا به وتحفيا بالطائية ، ثم قال: أبى الله إلا أن يكون الشعر يمنيا ."(الامدي،ص٨)، وفي النصوص السابقة يتجلى لنا أسلوب المناظرة في بسط الدعوى من الطرف الأول، ثم رد تلك الدعوى من الطرف الثاني مع إقامة الحجة وتقديم الدليل .

٢. **الأسلوب والذوق/** نجد أن أنصار أبي تمام يرون أن شعره أعمق من حيث المعرفة باللفظ والمعاني البلاغية ، وأن أسلوبه الشعري فريد فأهل البصيرة والذوق هم فقط من يفهموه ويستحسنوه" قال صاحب أبي تمام: إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه، وقصور علمه عنه، وفهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر، وإذا عرفت هذه الطبقة فضله، لم يضره طعن من طعن بعدها عليه. " (الامدي ، ص ١٩) ، فيرد صاحب البحتري دعواه ويفندها بقوله:" فابن الاعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني وقبلهما دعبل بن علي الخزاعي، قد كانوا علماء بالشعر وبكلام العرب ، وقد عرفتم مذاهبهم في أبي تمام وإرذالهم لشعره " (الامدي، ص١٩) .

٣. اللغة والبديع / المناظرة احتوت على جدل واسع حول الاسراف في المحسنات البديعية وجودة استخدامها، ومن هو صاحب السبق في تجديد الصور والمعاني، فأصحاب أبي تمام يرون أن صاحبهم مخترع هذا المذهب وأن البديع جزء من الابداع، في حين يرى أنصار البحتري أن الاسراف في البديع قد يخرج الشعر عن الذوق السليم، يقول أصحاب أبي تمام:" فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه، وصار فيه أولا وإماما متبوعا، وشهر به حتى قيل: مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره، وهي فضيلة عرى عن مثلها البحتري"(الامدي، ص١٣)، فيرد صاحب البحتري قائلا:" ليس الأمر في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم، ولاهو بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك في ذلك سبيل مسلم بن الوليد، واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف، والسنن المألوف، وعلى أن مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب، ولا هو أول فيه ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها، وأكثر من شعره منها، وهي في كتاب الله عز وجل موجودة ، قال الله تعالى:(واشتعل الرأس شيبا) فهذه من الاستعارة التي هي في القران"(الامدي، ص١٤) .

٢. مناظرات الكتاب حول البلاغة والانشاء والنظم والنثر

شهد العصر العباسي نهوضا هائلا في فنون البلاغة والإنشاء لاسيما في دواوين الرسائل السلطانية ، وكان الكتاب يتنافسون على اتقان الصناعة الكتابية، سواء في الصور البيانية، أو التوازن الصوتي، أو الترسل الخطابي، هذا التنافس ولد نوعا من المناظرات تارة ضمن نصوص مكتوبة، وتارة في تقويم الخلفاء والوزراء لرسائل الكتاب. في زمن الكتاب العباسيين مثل التوحيدي والجاحظ ظهرت مناظرات حول أساليب

الكتابة والنثر، ومفاضلة بين السجع والمرسل وبين العربية الخالصة والمولدة. وفيما يلي مناظرة حول بلاغة اللسان وبلاغة القلم" قال التوحيدي:وما القلم واللسان إلا آلتان، وما مستقاهما إلا واحد، فلم نرى عشرة يكتبون ويجيدون ويبلغون، وثلاثة منهم إذا نطقوا لا يجيدون ولا يبلغون؟ والذي يدلك على قلة بلاغة اللسان إكبار الناس البليغ باللسان أكثر من اكبارهم البليغ بالقلم. الجواب:قال أبو علي مسكويه رحمه الله : ذلك لأن البلاغة التي تكون بالقلم تكون تكون مع رؤية وزمان متسع للانتقاد والتخير والضرب والإلحاق وإحالة الرؤية لابدال الكلمة بالكلمة. ومن تبادل بالكلام متى لم يكن لفظه، ومعناه متوافيين عرض له التتعتع والتلجلج وتمضغ الكلام وهذا هو العي المكروه المستعاذ منه ، فأما البليغ فهو حاضر الذهن ، سريع حركة اللسان بالألفاظ التي لا يقتصر منها أن يبلغ ما في نفسه من المعنى حتى تتفرغ له قطعة من ذلك الزمان السريع الى توشيح عبارته وترتيبها باختيار الأعذب فالأعذب ، وطلب المشاكلة والموازنة والسجع ، وكثير مما يحتاج في مثله إلى الزمان الكثير والفكر الطويل."(التوحيدي، الهوامل والشوامل، ص١٥٥-١٥٦) لقد شكلت مناظرات الكتاب العباسيين مجالا خصبا لصراع تصورات متباينة حول البلاغة والإنشاء وهي مناظرات لم تكن تقنية فحسب، بل محملة برهانات فكرية وأيديولوجية تتصل بموقع الكاتب في الدولة ، وبعلاقته بالجمهور وبنظرته إلى وظيفة اللغة. وفيما يخص موضوع النظم والنثر فقد وردت في الهوامل والشوامل المناظرة الاتية "قال التوحيدي: لقد قدم الأكثرون النظم على النثر ولم يحتجوا فيه بظاهر القول، وأفادوا مع ذلك به، وجانبوا خفيات الحقيقة فيه، وقدم الأقلون النثر وحاولوا الحجاج فيه، الجواب: قال أبو علي مسكويه رحمه الله: إن النظم والنثر نوعان قسيمان تحت الكلام ، والكلام جنس لهما . وإنما تصح القسمة هكذا: الكلام ينقسم إلى المنظوم وغير المنظوم، وغير المنظوم ينقسم إلى المسجوع . ولا يزال ينقسم كذلك حتى ينتهي إلى آخر أنواعه. ومثال ذلك مما جرت به عادتك أن تقول: الكلام بما هو جنس يجري مجرى قولك الحي ، فكما أن الحي ينقسم إلى الناطق وغير الناطق، ثم أن غير الناطق ينقسم إلى الطائر وغير الطائر، ولا تزال تقسمه حتى ينتهي إلى آخر أنواعه، ولما كان الناطق والطائر يشتركان في الحي الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل الناطق عن الطائر بفضل النطق، فكذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي به صار المنظوم منظوما . ولما كان الوزن حلية زائدة، وصورة فاضلة على النثر صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن، فان اعتبرت المعاني مشتركة بين النظم والنثر، وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الاخر، بل يكون كل واحد منهما صدقا مرة ، وكذبا مرة ، وصحيحا مرة وسقيما أخرى"(التوحيدي، ص ١٦٩) .

٣. مناظرات بين النحويين(الكوفيين والبصريين)

شهدت الحركة النحوية في العصر العباسي انقساما علميا وثقافيا كبيرا بين مدرستي البصرة والكوفة ، ولم تكن هذه المناظرات محض خلافات علمية، بل كانت انعكاسا لصراع أيديولوجي يرتبط بمناهج التفكير وموقع اللغة في المجتمع والدولة ، وأحيانا بتوجهات مذهبية ومناطقية. وفيما يخص سمات المدرستين ، كانت مدرسة البصرة تميل إلى التجريد المنطقي والقياس الصارم، وتضع الأصل قبل الاستعمال ومن رموزها(سيبويه والمبرد والأخفش)، أما مدرسة الكوفة فهي أكثر تساهلا في قبول الشواهد، وتميل إلى القياس على اللغة المستعملة ، وتقبل الشاذ إذا سمع من العرب ، من رموزها(الكسائي والفراء). وهناك العديد من المناظرات في هذا المجال، أبرزها(المسألة الزنبورية) وهي مناظرة جرت بين سيبويه والكسائي في مجلس يحيى بن خالد البرمكي." بدأت بقول الكسائي لسيبويه: تسألني أو أسألك؟ فقال: لا بأس سلني أنت . فقال الكسائي: كيف تقول، قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها ؟ . فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحنت... فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن ذا يحكم بينكما؟، فقال الكسائي:هذه العرب ببابك، وهم فصحاء الناس، فيحضرون ويسألون. فقال يحيى: لقد أنصفت، وأمر باحضارهم فدخلوا، وسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه ، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله."(أحمد أمين ، ضحى الاسلام، ج٢ ، ص ٥٥)، نجد أن التمثل الايدلوجي للمناظرة يتضح من خلال الصراع على المرجعية اللغوية، بل والسياسية أيضا حيث ساند البلاط الكوفيين غالبا، وإن بدا الحكم محايدا في بعض الأحيان. فهذه المناظرة تعبر عن المفاضلة بين النحو المعياري(سيبويه)والنحو الاستعمالي(الكسائي)، وتحمل في خلفيتها صراع البصرة(العلم المدني) والكوفة(العلم القريب من البلاط). وفي مناظرة بين المبرد وثعلبة، وجدنا جدل المعيارية مقابل الواقع اللغوي، فالمبرد يعلي من شأن القياس، وثعلب يعلي من شأن السماع .قال المبرد(بصري):اللغة لا تأخذ إلا من أفواه الفصحاء، لا من سوقة الناس، ورد عليه ثعلب(كوفي) إن الفصحاء كانوا في البوادي،لا في دواوين العلم، ونحن نأخذ عن أفصح العرب لا عن المتكلفين"(السيوطي، تحفة المجالس، ص٨٩) ، تكشف مناظرات النحويين عن خلفيات أيدلوجية منها تمثل الحضري/البدوي، لأن البصرة تمثل النحو الحضري العلمي، والكوفة تمثل نحو البادية والسماع، ومن الخلفيات الأخرى سلطة الدولة ، فقرب الكوفيين من البلاط (الكسائي مؤدب أولاد الرشيد)، جعلهم أكثر تساهلا في أحكام اللغة. والخلفية التي تمثل منهج العقل مقابل النقل ، فالبصريون عقلانيون تحليليون والكوفيون نقليون سمعيون. ومن الخلفيات المهمة أنها حملت بعدا مذهبيا خفيا ، فقد لوحظ أحيانا أن البصريين أقرب للمعتزلة، والكوفيين أقرب لأهل الحديث.

٤. المناظرات الخيالية(رمزية الطبيعة وجدلية الوجود)

هذا النوع من المناظرات يكون في مخيلة الكاتب بين شخصيات بشرية متخيلة أو جمادات أو حيوانات، ويكون خيال الكاتب فيها واسعا في مناقشة قضايا جديدة غير متناولة ، ويضيف إليها نوعا من التجديد في الأسلوب والعرض، فهي وسيلة لاستعراض ثقافة الكاتب وفكره ومعلوماته . إن الحكم في المناظرات الادبية المتخيلة يكون فقط للكاتب بحيث يكون جاهزا لأي حجة داعمة للرأي المخالف له فيفندها دون الرد عليه، وينظر للموضوع من ناحية أخرى. تعد مناظرات الحيوان والنبات والجماد من أبرز ملامح الأدب الجدلي الرمزي في العصر العباسي، حيث يسند الكلام إلى الكائنات غير العاقلة لتعبر عن قضايا فلسفية واخلاقية واجتماعية، وتأتي هذه المناظرات امتدادا للفكر المجازي الذي يسعى لتحميل الطبيعة مواقف بشرية، ومفاضلات ترمز إلى فئات أو تيارات ثقافية. بالاطلاع على كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع نجد هناك العديد من المناظرات والحوارات التي تقدم عبر قصص الحيوانات الرمزية ، أبرزها مناظرات كليلة ودمنة (ابن آوى) مع بعضهما البعض أومع شخصيات أخرى ، تتناول فيها مواضيع مختلفة كالحكمة السياسية ، والأخلاق، وعلاقات الحاكم والمحكوم، وأهمية العقل والحذر، مثل مناظرة(البوم والغربان) في التحذير من العدو، و(الناسك وابن عرس) في التثبت قبل الحكم، ومناظرة (الأسد وابن آوى) حول الظلم والنميمة، وتعد هذه المناظرات جوهر كتاب كليلة ودمنة الذي يمزج بين السرد والتأمل العقلي. في باب البوم والغربان تجري مناظرة بين ملك البوم والغراب ثم بين الملك ووزرائه وفيها الكثير من الحكم والحجج التي تأتي أحيانا على هيئة قصة قصيرة تحمل حكمة" فسئل الغراب عن أمره فقال:إن ملكنا استشار جماعتنا فيكن ، وكنت يومئذ بمحضر من الأمر ، فقال: أيها الغربان ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم، لأنهن أشد بطشا، وأحد قلبا منا ، ولكن أرى أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفدية في ذلك، فإن قبلت البوم ذلك منا، وإلاهربنا في البلاد وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيرا لهن وشرا لنا، فالصلح أفضل من الخصومة، وأمرتهن بالرجوع عن الحرب ، وضربت لهن الأمثال في ذلك ، وقلت لهن: إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له، ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت، فعصينني في ذلك وزعمن أنهن يردن القتال، واتهمنني في ما قلت، وقلنا إنك قد مالأت البوم علينا، ورددن قولي ونصيحتي وعذبنني بهذا العذاب، وتركني الملك وجنوده وارتحل ولا علم لي بهن بعد ذلك، فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترى فيه ؟ قال: ما ارى إلا المعاجلة له بالقتل، فان هذا أفضل عدد الغربان، وفي قتله لنا راحة من مكره وفقده على الغربان شديد، ويقال: من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم ، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية، ومن وجد عدوه ضعيفا ولم ينجز قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه، قال الملك لوزير

اخر: ما ترى أنت في هذا الغراب ؟ قال: أرى ألا تقتله: فإن العدو الذليل الذي لا ناصر له أهل لأن يستبقى ويرحم ويصفح عنه ولا سيما المستجير الخائف، فإنه أهل لأن يؤمن. قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه: ما تقول في الغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه وتحسن إليه ، فإنه خليق أن ينصحك ، والعاقل يرى معادات بعض اعدائه بعضا ظفرا حسنا، ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصا خلاصا لنفسه منهم ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه ، قال له الملك : وكيف كان ذلك؟ "(ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ص١٤٥) ، ثم يبدأ وزير ملك البوم بسرد قصة الناسك واللص والشيطان، واستخدامها كحجة على صدق رأيه وصلاح مشورته، وتنتهي المناظرة بقبول الملك لمشورة وزيره، والاقتناع بحجته فيقرر عدم قتل الغراب، وهذه المناظرة تنطوي على حكمة كبيرة وأيديولوجيا تتطلبها السياسة والحكم، منها أخذ المشورة وعدم الاستبداد بالرأي، ومنها تحكيم العقل وعدم التسرع في اتخاذ القرار، والتفكير بالآراء المطروحة بعمق قبل الأخذ بها .

ومن المناظرات الخيالية الاخرى مناظرة الصاهل والشاحج للمعري إذ يفتتح مناظرته بدعوى التفاضل القائمة على النسب والوظيفة السلطوية، فيقول الصاهل:"زعمت أني خالك؟ وأين الافق من اللئيم ولدته غافق؟ ومابين الشربة والصربة من سهمة؟ وما قرابة البيدانة إلى الريدانة؟ "(المعري، الصاهل والشاحج ، ص١١٣). هذه الدعوى تُبنى على حجّة المقام الاجتماعي، وهي حجّة شائعة في المناظرات الطبقية وقد جاءت بناءا على دعوة الشاحج له بخالي وهو أمر أنف منه الصاهل. ونجد أنّ الشاحج (البغل) لا يردّ بنفي مباشر، بل يعتمد حجّة الإلزام:" فالجنسية قرابة بين المتجانسات. ثم يتفرع ذلك إلى ترتيب الأنواع : فالحيوان كله جنس بينه تقارب بالجنسية، فقد جمعتني وإياك الحيوانية وكوننا من ذوات الأربع قرابة ثانية وأخص من ذلك أننا من ذوات الحافر"(ص١٧٠) هنا يستخدم المعري قياسًا ساخرًا يفكك منطق الخصم من داخله ، ويحوّل الدعوى إلى نقيضها .

تندرج مناظرة السيف والقلم التي كتبها ابن برد الأصغر وهو شاعر عباسي من القرن الثالث الهجري، ضمن مشروع فكري جدلي ساد في ذلك العصر لإظهار قدرة الكتاب على الجدل البلاغي والتفنن في الحجاج، حيث لا تُورد المناظرات لمجرد التسلية البلاغية، بل بوصفها تمثيلًا رمزيًا لصراع القيم داخل الثقافة العباسية، كقيمة القوة والبطش في مقابل قيمة العقل والبيان، فالمناظرة ليست صراع أدوات، بل صراع انموذجين للسلطة، سلطة تُؤسَّس على القهر(السيف)، وسلطة تُؤسَّس على الإقناع والمعرفة(القلم) ، والحِجاج هو الأداة المركزية التي تُدار بها هذه المواجهة. قال القلم:" الحق أبلج والباطل لجلج، أجلب الغنى من ضروعه، وأجتني الندى من فروعه، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الأمل ، شفيع كل ملك إلى مطالبه ووسيلته إلى مكاسبه"(شوقي ضيف ، ص٤٦٠) ، وهذه حجّة عقلية معرفية تجعل الفضل في الهداية لا في الإكراه، والقيمة في العلم لا في الماديات. فيرد السيف:" إن الملوك لتبادر

إلى دركي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثني على النسب، والتغالي في على الحسب"(شوقي ضيف ، ص٤٦٠). وهذه حجّة تقوم على السلطة الفعلية ، وربط الفضل بالنتيجة المباشرة (الخضوع ، الطاعة) ، وهي حجّة واقعية ، تعتمد منطق الغلبة لا الاقناع .

إن المناظرات الرمزية أعلاه، لم تكن تسلية لغوية فحسب، بل كانت أدوات رمزية فعالة في التعبير عن جدليات اجتماعية وفكرية في العصر العباسي، حيث جعلت الكائنات والجمادات مرايا تعكس صراعات الانسان حول الهوية، الأخلاق، السلطة ، والغاية من الوجود. وقد حققت تلك المناظرات التي شاعت في" الرسائل الادبية ذات التشكيل الدرامي نجاحا كبيرا في خلق الصراعات المثيرة، ذات الأبعاد المتميزة والملائمة لذوق العصر، الذي غلب عيه حب الجدل والمحاججات والفلسفة، ولكنها قدمت كل ذلك بأسلوب جديد ومتميز وإبداعي ."(هالة فتحي، صور الابداع في النثر العباسي ، ٢٠٢١ ، ص ٥٤) .

٥. المناظرات بين العرب والموالي حول المنطق والفلسفة

في سياق ذلك ، تُعدّ مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتىّ بن يونس واحدة من أشهر مناظرات الكتاب ، وقد أثارت اهتمام الدارسين لثرائها الحجاجي ولما تمثّله من صراع فكري بين منطقٍ علمي مستورد (المنطق اليوناني عبر الترجمة) وبين أصالة العلم العربي ونحوه. نشأت هذه المناظرة في بغداد خلال القرن الرابع الهجري ضمن مجالس الوزير ابن الفرات. وكان الوزير غالبًا ما يطرح موضوعات تثير جدلاً معرفيًا بين روّاد العلم في عصره، فيلتقي في المجلس الواحد لغويون ونحويون ومنطقيون وفلاسفة. وكان السيرافي (نحوي معتزلي) ومتىّ بن يونس(منطقي ومدرّس للمنطق اليوناني) من أبرز المشاركين في هذه المحاورة. وقد جاءت المناظرة استجابة لدعوة الوزير، فعمد كل من المتناظرين إلى الدفاع عن منظومته المعرفية : السيرافي عن أصالة النحو العربي وشرعيته، ومتىّ عن ضرورة المنطق كأساس للتفكير العلمي والفلسفي. وهكذا تشكّل النقاش في إطار معركة بين نمطين من المعرفة، عقل لغويّ عربي أصيل مقابل عقل منطقي مستورد من التراث اليوناني عبر ترجمات بغداد. تتألف المناظرة من سلسلة أسئلة وأجوبة ، يتداخل فيها الحجاج مع التساؤل البنيوي في قواعد النحو والمنطق. وقد برز فيها عدة أهداف، النقاش حول أسبقية معرفة النحو على المنطق، إذ يناقش السيرافي قيمة النحو العربي وأسبقيته كإطار لفهم اللغة والمعنى، في مقابل المنطق الذي يؤسّس لاستدلالات فلسفية بحتة ودحض مزاعم الخصم ودعم الرؤية الذاتية ،فكلا الطرفين يسعى إلى دعم رؤيته باستخدام الحجج البلاغية والمنطقية معًا ، لكن الاختلاف في أدواتهما. وأيضا تحويل الخطاب من المباشر إلى الضمني، إذ نجد التوحيدي— بصيغة السارد — يميل أحيانًا إلى توظيف أسلوب غير مباشر في نقل المناظرة ، فينتقل من القول الصريح إلى التضميني لتمرير مضامين ترمي إلى تأثير القارئ وإيقاظه بعيدًا عن أسلوب النقاش المباشر.

تمثّلت أبرز نقاط الخلاف في مدى اعتبار المنطق أداة معرفية مستقلة عن اللغة العربية. مثلاً ، يرى متىّ بن يونس أن المنطق قيمة معرفية ضرورية لفهم القضايا الفلسفية والمعرفية ، وأنه يمكن أن يساعد في استنباط الحقيقة فلسفيا. في المقابل يقدم السيرافي حجاجًا نحو تعظيم النحو العربي وأهميته في تأسيس الفهم الصحيح للفكر والمعنى." قال السيرافي: حدثني عن المنطق ماذا تعني به ؟ فانا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة . قال متى: أعني به أنه الة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان فاني أعرف به الرجحان من النقصان، والشائل من الجانح . فقال أبو سعيد: أخطأت، لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل ، وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون أيما هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها "(التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ص٨٠) ينطوي النص على بداية الصراع، وهذا الصراع جعل من المناظرة ما يشبه مناظرة بين النظامين المعرفيين ـ لغة عربية كأداة للمعرفة مقابل منطق اليونان المترجَم والمستعار والذي لا يمكن تطبيقه على اللغة العربية وغيرها . يقول السيرافي:" إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفون هبها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم الترك والعند والفرس والعرب ان ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم "(ص٨٠)، وقد استعان الطرفان بوسائل بلاغية متعددة مثل المقارنة ، والتشبيه ، والاستعارات ، ومبادئ السجع والإيقاع في الخطاب، وذلك لإقناع الجمهور(الوزير والحضور) بفلسفتهما. وتكشف هذه الأساليب عن وعي حجاجي عالٍ بالأسلوب أكثر منه مجرد نقاش فقهي أو لغوي." قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أت الترجمة صدقت وما كذبت ، وقومت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، أنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت ولا قدمت ولا أخرت "(ص٨١)

المبحث الثاني

التمثلات الايديولوجية في المناظرات الأدبية

شكّلت المناظرات الأدبية في العصر العباسي فضاءً حيويًا لتجلّي الصراعات الفكرية والإيديولوجية التي صاحبت تشكّل الدولة العباسية وترسّخ بنيتها السلطوية. ولم تكن هذه المناظرات مجرّد محاورات لغوية أو تنافس بلاغي، بل كانت في جوهرها خطابًا ثقافيًا يعكس علاقة المثقف بالسلطة، ويعيد إنتاج مفاهيم الطاعة، والشرعية، والخضوع السياسي ضمن قوالب أدبية تتخفّى أحيانًا خلف الجدل العلمي أو التفاضل المعرفي. ومن هنا تتبدّى السلطة بوصفها بنية مهيمنة تتسلل إلى الخطاب الأدبي، بينما يظهر الخضوع

السياسي كتمثّل إيديولوجي يُعاد إنتاجه عبر آليات بلاغية وحجاجية دقيقة. ومن خلال نصوص المناظرات التي اطلعنا عليها ، وقدمنا نماذج منها للدراسة، استطعنا رصد عدد من صور التمثلات الايديولوجية في تلك المناظرات وكان أهمها :

١. تمثل السلطة والخضوع السياسي

أولًا: المناظرة الأدبية بوصفها خطابًا إيديولوجيًا

المناظرة، في السياق العباسي، ليست حوارًا متكافئًا بين أطراف متساوية، بل غالبًا ما تجري في فضاء ترعاه السلطة أو تُراقبه، سواء في مجالس الخلفاء أو في بلاط الوزراء أو في المحافل العلمية المرتبطة بالدولة. وبذلك تصبح المناظرة ممارسة خطابية محكومة بشروط سياسية غير معلنة، حيث يُسمح بالاختلاف في حدود لا تمسّ جوهر السلطة أو شرعيتها. ومن هذا المنظور، تتحوّل الإيديولوجيا إلى بنية كامنة في الخطاب، لا تُصرّح بذاتها، بل تعمل عبر إعادة تنظيم المعاني وتوجيه الاستدلالات بما يخدم تصورًا محددًا للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين المركز والأطراف، وبين العالم والسلطان.

ثانيًا: تمثّل السلطة في بنية المناظرة

تتجلّى السلطة في المناظرات العباسية عبر عدة مستويات: سلطة الراعي السياسي للمناظرة، فالخليفة أو الوزير الذي يعقد المناظرة يملك سلطة الإطار، أي سلطة تحديد الموضوع ،واختيار المناظرين، والحكم الضمني على النتائج. وغالبًا ما ينتهي النقاش بما ينسجم مع توجّه الراعي السياسي، حتى وإن بدا ظاهرًا أن أحد الأطراف قد غُلِب بالحجة. وسلطة الانموذج المعرفي الرسمي، إذ يُعاد إنتاج المعرفة المقبولة سلطويًا بوصفها معرفة "عقلية" أو "وسطية " أو "جامعة "، بينما تُقصى الآراء التي تُعدّ مهدّدة للاستقرار السياسي أو العقدي ، كما يظهر في مناظرات المعتزلة مع خصومهم حين ارتبط العقل بمشروع الدولة في عهد المأمون والمعتصم. وسلطة اللغة والبلاغة ، فالتمكّن من أدوات البيان يُستخدم لتكريس التفوّق الرمزي، حيث تُصاغ الحجج بأسلوب يُضفي على رأي السلطة طابع البداهة والضرورة ، فيتحوّل الخطاب السلطوي إلى "حقيقة لغوية" يصعب الطعن فيها.

ثالثًا: الخضوع السياسي وآلياته الخطابية

لا يظهر الخضوع السياسي في المناظرات العباسية بصيغته المباشرة، بل يتخذ أشكالًا رمزية دقيقة منها ، التسليم بالحاكم بوصفه مرجعًا نهائيًا ، فكثير من المناظرات تنتهي بالاحتكام إلى رأي الخليفة، لا إلى قوة الدليل وحدها، مما يعكس تمثّلًا إيديولوجيًا يرى في السلطة السياسية مرجعًا معرفيًا وأخلاقيًا. إعادة تعريف الطاعة بوصفها عقلًا وحكمة، حيث يُقدَّم الامتثال للسلطة على أنه ناتج عن تعقّل واتزان، لا عن خوف أو إكراه ، وهو ما يضفي على الخضوع طابعًا أخلاقيًا مشروعًا. تحييد المعارضة عبر الاحتواء

البلاغي ، إذ يُسمح للخصم أن يتكلم، لكن ضمن إطار لغوي يُفرغ اعتراضه من قوته الثورية ، فيتحوّل الخلاف إلى تمرين ذهني لا يهدد البنية السياسية.

رابعًا: المثقف بين المقاومة والامتثال

تكشف المناظرات الأدبية عن وضعية إشكالية للمثقف العباسي، فهو من جهة يمتلك أدوات النقد والاحتجاج، ومن جهة أخرى يدرك حدود الممكن في ظل سلطة مركزية قوية. لذلك تتراوح مواقفه بين:

الامتثال الذكي: عبر توظيف البلاغة لخدمة السلطة دون إعلان ذلك صراحة.

المقاومة المؤوَّلة: من خلال التلميح والرمز والسخرية المقنّعة.

الحياد الظاهري: الذي يخفي خضوعًا إيديولوجيًا غير واعٍ أحيانًا.

إن تمثّل السلطة والخضوع السياسي في المناظرات الأدبية العباسية يكشف عن تداخل عميق بين الأدب والسياسة، حيث يتحوّل الخطاب الأدبي إلى أداة لإعادة إنتاج الهيمنة،لا مجرد وسيلة للتعبير الحر. فالمناظرة، بوصفها شكلًا ثقافيًا، تسهم في ترسيخ التصورات السلطوية عن الطاعة والشرعية، وتُخضع العقل الأدبي لمنطق الدولة، حتى وهو يتظاهر بالاختلاف. ومن ثمّ، فإن قراءة هذه المناظرات قراءة إيديولوجية نقدية تتيح لنا فهمًا أعمق لبنية الثقافة العباسية، بوصفها ثقافة تفاوض دائم بين السلطة والمعرفة، وبين الخضوع والاحتجاج.

٢. تمثل الانتماء القومي (العرب والموالي)

مثّلت المناظرات الأدبية في العصر العباسي أحد أهم الفضاءات الخطابية التي تجلّت فيها التحوّلات العميقة في بنية المجتمع الإسلامي، ولا سيّما ما يتصل بإشكالية الانتماء القومي بين العرب والموالي. فقد جاءت الدولة العباسية في سياق تاريخي شهد تراجع الامتياز العربي الخالص الذي طبع العصر الأموي، وصعود قوى اجتماعية وثقافية جديدة، كان للموالي – ولا سيما الفرس – دورا مركزيا في تشكّلها السياسي والإداري والفكري. ولم تكن المناظرات الأدبية معزولة عن هذا السياق، بل غدت ساحة رمزية لإعادة إنتاج الصراع القومي، وتمرير تصورات إيديولوجية حول التفاضل، والهوية، وشرعية الانتماء إلى مركز السلطة.

أولًا: المناظرة الأدبية بوصفها فضاءً للصراع القومي المؤدلج

لا يمكن قراءة المناظرات العباسية قراءة جمالية أو لغوية محضة، إذ إن بنيتها الحجاجية تكشف عن صراع إيديولوجي مكتوم بين العرب والموالي، يتخفّى خلف قضايا ظاهريًا أدبية أو لغوية أو تاريخية. فالمناظرة هنا ليست مجرد جدل بين رأيين، بل هي ممارسة ثقافية تسعى كل فئة من خلالها إلى تثبيت موقعها داخل الهرم الاجتماعي والسياسي. وقد أتاحت الدولة العباسية ، بحكم اعتمادها على الموالي في

الإدارة والعلم، هامشًا أوسع لظهور خطاب مضاد للهيمنة العربية التقليدية، غير أن هذا الهامش ظل مضبوطًا بإطار سلطوي لا يسمح بتقويض المرجعية العربية–الإسلامية كليةً، بل بإعادة تأويلها.

ثانيًا: تمثّل الانتماء العربي: من الامتياز العرقي إلى الشرعية الثقافية

يظهر التمثّل الإيديولوجي للانتماء العربي في المناظرات من خلال الدفاع عن العرب لا بوصفهم جماعة عرقية فحسب، بل باعتبارهم حَمَلة الرسالة، وأهل اللسان، وأصحاب السبق الحضاري. وقد لجأ الخطاب العربي إلى جملة من الآليات الحجاجية، أبرزها: تعظيم العربية لغةً وبيانًا، حيث تُقدَّم اللغة العربية بوصفها وعاء الوحي، ومصدر الفصاحة، ومعيار التفاضل الثقافي، وهو ما يجعل التفوق العربي تفوقًا "طبيعيًا" لا يحتاج إلى عنف رمزي مباشر. والاحتجاج بالتراث الجاهلي والإسلامي، إذ يُستدعى الشعر، وأيام العرب، والأنساب، لإنتاج سردية تاريخية تؤكد مركزية العرب في صناعة المجد والحضارة. وإعادة تعريف العروبة بوصفها قيمة أخلاقية، فتُربط العروبة بمفاهيم المروءة ، والشجاعة ، والكرم ، بما يحوّلها من هوية قومية إلى منظومة قيمية يصعب الطعن فيها.

ثالثًا: تمثّل الموالي : من التبعية إلى التفوق الحضاري

في المقابل، سعى خطاب الموالي في المناظرات الأدبية إلى تفكيك الامتياز العربي، وإعادة بناء مفهوم التفاضل على أسس جديدة، لا تقوم على النسب والعرق، بل على العقل والعلم والحضارة. ويتجلّى التمثّل الإيديولوجي لانتماء الموالي في عدة مظاهر: نقد العصبية العربية، حيث يُقدَّم التعصب العربي بوصفه بقايا جاهلية تتناقض مع مبدأ المساواة الإسلامية، وهو خطاب يكتسب شرعيته من النص الديني ذاته. وتمجيد الحضارات السابقة للإسلام، ولا سيما الفارسية، من خلال إبراز نظم الحكم، والعلوم، والآداب، بما يرسّخ صورة الموالي بوصفهم أصحاب إرث حضاري عريق سبق العرب في التنظيم والعقلانية. وتحويل العلم إلى معيار تفاضل، إذ يُقدَّم الموالي بوصفهم روّاد الترجمة، والفلسفة، والعلوم العقلية، مما يمنحهم تفوقًا معرفيًا يعوّض عن نقص النسب.

رابعًا: الإيديولوجيا بوصفها آلية تسوية لا صراعًا مفتوحًا

رغم حدّة الخطاب في بعض المناظرات، فإن التمثّل الإيديولوجي للانتماء القومي لم يصل غالبًا إلى قطيعة تامة بين العرب والموالي، بل أسهم في إنتاج صيغة توفيقية تُعيد ترتيب التفاضل دون نسف البنية الجامعة للدولة العباسية. فقد جرى تسييس الهوية الثقافية بدل الهوية العرقية الصريحة. واحتواء الصراع القومي داخل أطر أدبية وعلمية تضبطه وتمنع تحوّله إلى تمرّد سياسي. وإعادة إنتاج الهيمنة في صورة تعددية ظاهرية تخفي تفاوتًا بنيويًا في السلطة.

خامسًا: المناظرات الأدبية بوصفها مرآة للتحوّل الاجتماعي

تكشف هذه المناظرات عن تحوّل عميق في مفهوم الهوية في العصر العباسي، حيث لم تعد العروبة شرطًا كافيًا للسيادة الرمزية، ولم يعد الانتماء إلى الموالي عائقًا مطلقًا أمام النفوذ الثقافي. غير أن هذا التحوّل ظل محكومًا بإيديولوجيا الدولة التي سعت إلى تحقيق توازن دقيق بين إرث عربي إسلامي جامع، وقوى ثقافية جديدة تطالب بالاعتراف. إن التمثّل الإيديولوجي للانتماء القومي بين العرب والموالي في المناظرات الأدبية العباسية يكشف عن دينامية معقّدة بين الهوية والسلطة والمعرفة. فالمناظرة ليست ساحة حرة للتعبير، بل آلية ثقافية لإدارة الصراع القومي وإعادة إنتاجه في صورة خطابية قابلة للاحتواء. ومن خلال هذا التمثّل، يتجلّى الأدب العباسي بوصفه ممارسة إيديولوجية واعية أو غير واعية، تسهم في صياغة وعي جماعي جديد يتجاوز التفاضل العرقي الصريح، دون أن يتخلّى تمامًا عن آثاره الرمزية.

٣. التمثلات الطبقية (الأديب المثقف مقابل الاعرابي)

شهد العصر العباسي تحوّلًا نوعيًا في بنية المجتمع العربي الإسلامي، تمثّل في صعود طبقة المثقفين والأدباء المرتبطين بالمدن ومراكز السلطة والعلم، مقابل تراجع الانموذج البدوي الذي مثّله الأعرابي بوصفه رمزًا للبساطة والفطرة واللغة الأولى. وقد انعكست هذه التحوّلات الاجتماعية بوضوح في المناظرات الأدبية، التي لم تكن مجرّد سجالات لغوية أو طُرَفٍ ثقافية، بل شكّلت فضاءً إيديولوجيًا لإعادة إنتاج التراتبية الطبقية، حيث يتقابل الأديب المثقف بوصفه حامل المعرفة المكتسبة، مع الأعرابي بوصفه تمثيلًا للمعرفة الفطرية أو الهامش الاجتماعي. إذ تُقدّم المناظرة الأدبية العباسية نفسها ظاهريًا بوصفها حوارًا متكافئًا، غير أن بنيتها العميقة تكشف عن عدم توازن طبقي ومعرفي واضح. فالأديب المثقف يمتلك أدوات اللغة، والبلاغة، والمنطق، ويدخل المناظرة من موقع اجتماعي مركزي، غالبًا ما يكون مرتبطًا بالبلاط أو بحلقات العلم الحضرية. في المقابل، يُستحضر الأعرابي بوصفه " آخر" ثقافيًا، يُسمح له بالكلام ضمن شروط محددة، وغالبًا ما يُستخدم حضوره لإبراز تفوق الخطاب الحضري لا لمساءلته. ويُقدَّم الأديب المثقف في المناظرات بوصفه أنموذجًا للإنسان العباسي الجديد، الذي تتداخل في شخصيته المعرفة، والذكاء البلاغي، والقدرة على التكيّف مع السلطة. ويتجلّى التمثّل الإيديولوجي لهذا الانموذج عبر:

١. احتكار أدوات الخطاب

إذ يتحكم الأديب في مسار الحوار من خلال توظيف القياس، والاستشهاد، والسخرية المبطنة، مما يجعل خطابه معيارًا للعقل والرشد.

٢. تقديم الثقافة بوصفها مكتسبة ومنظمة

حيث تُقابَل فصاحة الأعرابي العفوية بثقافة الأديب الموسوعية، بما يعكس انتقال المجتمع من ثقافة الشفاهة إلى ثقافة التدوين.

٣. ربط التفوق المعرفي بالمكانة الاجتماعية

فالمعرفة هنا ليست قيمة مجردة، بل وسيلة للترقي الطبقي، وإعادة إنتاج النخبة الحضرية.

ثالثًا: تمثّل الأعرابي: الفطرة بين التمجيد والتهميش

يحضر الأعرابي في المناظرات حضورًا إشكاليًا مزدوجًا؛ فهو من جهة مصدر أصالة لغوية تُستشهد بأقواله لتقويم اللسان، ومن جهة أخرى يُقدَّم بوصفه ساذجًا أو محدود الأفق، غير قادر على استيعاب تعقيدات الثقافة الحضرية. ويتجلى التمثّل الإيديولوجي للأعرابي عبرتشييء الفطرة اللغوية، حيث تُختزل قيمة الأعرابي في كونه خزانًا لغويًا، لا فاعلًا معرفيًا مستقلًا. وتحييد الوعي النقدي ، فغالبًا ما يُصوَّر الأعرابي بوصفه صادقًا وبسيطًا، لكن خارج التاريخ، وغير معنيّ بالسياسة أو الفكر المركّب. وأيضا استخدام الأعرابي كأداة سردية ،إذ يُستدعى في النصوص لإنتاج المفارقة أو الطرفة، لا لتفكيك النظام الثقافي السائد.

رابعًا: المناظرة بوصفها إعادة إنتاج للتراتبية الطبقية

تكشف المناظرات الأدبية العباسية عن آلية إيديولوجية دقيقة تعيد من خلالها الثقافة الرسمية إنتاج التراتبية الطبقية دون إعلان صريح. فالتفوّق الحضري يُقدَّم بوصفه نتيجة طبيعية للتقدّم، بينما يُحوَّل التهميش البدوي إلى مسألة اختلاف ثقافي لا ظلم اجتماعي. وبذلك يُشرعن صعود طبقة الأدباء بوصفهم ممثلي العقل والنظام. ويتم احتواء الأعرابي داخل خطاب الحنين إلى الأصل، دون منحه سلطة التأويل. كما يُعاد تعريف " القيمة" وفق معايير المدينة لا الصحراء.

خامسًا: الجاحظ أنموذجًا للتمثّل الطبقي المركّب

يُعدّ الجاحظ من أبرز الكتّاب الذين تعاملوا مع ثنائية الأديب والأعرابي بوعي إيديولوجي مركّب؛ فهو من جهة يُمجّد فصاحة الأعراب ويحتجّ بها، ومن جهة أخرى يُخضعها لمنطق العقل الحضري والجدل المنهجي. وبذلك يسهم في ترسيخ مركزية المثقف، مع الحفاظ على الأعرابي بوصفه مرجعية لغوية لا ثقافية شاملة.

عموما إن التمثّل الإيديولوجي للتمثلات الطبقية في المناظرات الأدبية العباسية يكشف عن تحوّل عميق في مفهوم المعرفة والسلطة الثقافية. فالصراع بين الأديب المثقف والأعرابي ليس صراعًا لغويًا بريئًا،

بل هو انعكاس لصعود طبقة حضرية جديدة تسعى إلى شرعنة موقعها عبر الخطاب الأدبي، مقابل إعادة تأطير الأعرابي داخل صورة تراثية جامدة. ومن ثمّ، فإن قراءة هذه المناظرات قراءة نقدية تُظهر كيف أسهم الأدب العباسي في إنتاج وعي طبقي مؤدلج، يُخفي الهيمنة خلف البلاغة، ويُحوّل الحوار إلى أداة ضبط ثقافي.

٤. التمثلات الدينية والمذهبية

شكّلت المناظرات الأدبية في العصر العباسي أحد أبرز الفضاءات الثقافية التي تداخل فيها الديني بالفكري والسياسي، حيث لم تكن هذه المناظرات مجرد نقاشات علمية أو بلاغية، بل كانت ساحة لإعادة إنتاج التمثّلات الإيديولوجية للدين والمذهب في ظل دولة متعددة الاتجاهات العقدية والمذهبية. فقد تزامن العصر العباسي مع اتساع رقعة الاختلاف الديني بين الفرق الإسلامية، واحتكاك الفكر الإسلامي بالفلسفات الوافدة، ما جعل المناظرة الأدبية أداة مركزية لإدارة هذا التعدد وضبطه داخل أطر خطابية تخدم استقرار السلطة وبناء "العقيدة الرسمية".

أولًا: المناظرة الأدبية بوصفها خطابًا دينيًا مؤدلجًا

تتجاوز المناظرة الأدبية في العصر العباسي وظيفتها الجدلية الظاهرة لتغدو ممارسة إيديولوجية تُعيد صياغة المفاهيم الدينية ضمن منظومة معرفية محددة. فهي لا تقوم على عرض الآراء على قدم المساواة، بل تُخضعها لمنطق المقبول والمرفوض وفق معايير سياسية ومذهبية مضبوطة. ومن ثمّ، فإن الخطاب الديني في المناظرات لا يُقدَّم بوصفه حقيقة مطلقة، بل بوصفه "تأويلًا مشروعًا" يحظى بشرعية السلطة أو المؤسسة العلمية.

ثانيًا: تمثّل الدين بين العقل والنقل

من أبرز التمثّلات الإيديولوجية في المناظرات العباسية التوتر بين العقل والنقل، ولا سيما في مناظرات المعتزلة مع أهل الحديث. فقد جرى إضفاء الشرعية على العقل بوصفه أداة دينية حيث مثّل الخطاب المعتزلي العقل بوصفه وسيلة لفهم النص لا نقيضًا له، مما أضفى على تأويلاتهم بعدًا إيديولوجيًا يخدم مشروع الدولة العباسية في مرحلتها العقلانية. وتحويل النقل إلى مرجعية مضبوطة ، في المقابل، قدّم أهل الحديث النص بوصفه سلطة عليا، غير أن هذا التمثّل ذاته لم يكن بريئًا، إذ استُخدم لحماية بنية اجتماعية محافظة تخشى زعزعة الاستقرار العقدي. وهكذا تحوّل الخلاف الديني إلى صراع تأويلي تُعاد من خلاله صياغة علاقة الإنسان بالنص والسلطة.

ثالثًا : التمثّلات المذهبية وإدارة الاختلاف

لم تكن المناظرات بين الفرق المذهبية مجرد محاورات لاهوتية ، بل كانت تعبيرًا عن صراع رمزي على الشرعية. فقد مثّلت كل فرقة نفسها بوصفها " الفرقة الناجية" أو " الوسطية "، بينما صُوِّر الآخر بوصفه مبتدعًا أو منحرفًا. ويتجلّى ذلك في تشييد صورة الذات المذهبية عبر لغة الاصطفاء، والاحتجاج بالسلف، وربط المذهب بالحق الإلهي أو العقل الصريح. وتشويه صورة الآخر المذهبي باستخدام السخرية، والمغالطة، وتضخيم الاختلافات الجزئية لإنتاج قطيعة رمزية. كذلك تحييد العنف عبر البلاغة ، حيث تُدار الخلافات داخل نصوص ومناظرات بدل تحوّلها إلى صدام مباشر، مما يجعل المناظرة أداة ضبط إيديولوجي.

رابعًا: حضور غير المسلمين في المناظرات الأدبية

شهد العصر العباسي مناظرات مع أهل الكتاب والفلاسفة، قُدِّمت فيها الديانات الأخرى ضمن تمثّلات إيديولوجية مزدوجة؛ فمن جهة أُتيح لها الحضور بوصفها أنساقًا فكرية قابلة للنقاش، ومن جهة أخرى جرى احتواؤها ضمن خطاب يُثبت تفوق الإسلام عقديًا وعقليًا. وغالبًا ما انتهت هذه المناظرات بتأكيد مركزية الإسلام بوصفه الدين " الجامع " القادر على استيعاب الآخر دون الذوبان فيه.

خامسًا: الأديب والمتكلم بين المعرفة والسلطة

لم يكن المتكلم أو الأديب في المناظرات العباسية فاعلًا حرًّا تمامًا ، بل كان واعيًا بحدود القول الممكن. فالتديّن ذاته خضع لإعادة تشكيل إيديولوجي، بحيث يُكافأ الخطاب الديني المتوافق مع السلطة. ويُهمَّش أو يُدان الخطاب الذي يهدد وحدة الدولة أو شرعيتها ، فتتحوّل البلاغة إلى أداة توفيق بين الإيمان والسياسة. ويمثّل أبو حيّان التوحيدي أنموذجًا إشكاليًا لهذا التوتر، إذ كشف في بعض نصوصه عن هشاشة هذه التمثّلات ، وإن ظل أسيرًا لمنطقها العام.

تكشف التمثّلات الإيديولوجية في التمثّلات الدينية والمذهبية في المناظرات الأدبية العباسية عن أن الدين، في سياقه الثقافي، لم يكن خطابًا بريئًا أو محايدًا، بل كان مجالًا لإنتاج المعنى وضبط الاختلاف وإعادة توزيع السلطة الرمزية. فالمناظرة الأدبية لم تُلغِ الخلاف، لكنها أعادت تأطيره ضمن لغة عقلانية أو بلاغية تُخفي الصراع الحقيقي خلف واجهة الحوار. ومن هنا تتبدّى أهمية القراءة الإيديولوجية لهذه المناظرات في فهم آليات اشتغال الثقافة العباسية، بوصفها ثقافة تفاوض دائم بين الإيمان والعقل، وبين المذهب والسلطة.

٥. تمثل الصراع بين التقاليد والحداثة

مثّل العصر العباسي مرحلة مفصلية في التاريخ الثقافي العربي، إذ شهد انتقالًا عميقًا من بنية ثقافية تقليدية قائمة على المشافهة والاحتكام إلى الموروث، إلى بنية جديدة أكثر تعقيدًا، اتسمت بالانفتاح على المعارف الوافدة، وازدهار حركة الترجمة، وتبلور العقل الجدلي. وقد انعكس هذا التحوّل في المناظرات الأدبية التي غدت ساحة رمزية لصراع إيديولوجي بين أنصار التقاليد، المدافعين عن سلطة السلف والنص، ودعاة الحداثة، الساعين إلى إعادة تعريف المعرفة والذائقة والشرعية الثقافية. ولم يكن هذا الصراع بريئًا أو محضًا، بل انطوى على تمثّلات إيديولوجية عميقة تُخفي خلفها رهانات السلطة والهوية والهيمنة الثقافية.

أولًا: المناظرة الأدبية بوصفها فضاءً لإدارة التحوّل الثقافي

لا يمكن فهم المناظرات العباسية بمعزل عن السياق الحضري والسياسي الذي احتضنها. فقد نشأت في بيئة مدينية متعدّدة الثقافات، فرضت أنماطًا جديدة من التفكير والتعبير. وبذلك تحوّلت المناظرة إلى أداة ثقافية لإدارة الصراع بين القديم والجديد، لا لحسمه، حيث يُسمح بتداول الأفكار الحداثية ضمن حدود لا تُفضي إلى قطيعة كاملة مع التراث المؤسِّس. ومن هنا، فإن المناظرة لا تمثّل مواجهة ثنائية حادّة، بل خطابًا تفاوضيًا يُعيد توزيع الأدوار بين التقاليد والحداثة وفق مقتضيات المرحلة.

ثانيًا: تمثّل التقاليد: سلطة السلف والمرجعية الموروثة

يتمثّل الخطاب التقليدي في المناظرات العباسية عبر استدعاء الماضي بوصفه معيارًا للشرعية والمعنى. ويتجلّى التمثّل الإيديولوجي للتقاليد في تعظيم السلف بوصفهم مرجعًا معرفيًا وأخلاقيًا

حيث يُقدَّم القدماء، شعراءً وعلماء، بوصفهم الانموذج الأكمل، ويُعدّ الخروج عن طرائقهم نوعًا من الانحراف أو الابتداع. والاحتكام إلى النصوص المؤسسة سواء أكانت نصوصًا دينية أم لغوية أم شعرية ، بما يحوّل التراث إلى سلطة مانعة لأي تجديد جذري. وأيضا ربط الأصالة بالهوية ، إذ تُصوَّر التقاليد بوصفها الضامن لهوية الأمة ، في مقابل تصوير الحداثة بوصفها تهديدًا أو تغريبًا. وهكذا تُؤدلَج التقاليد لتغدو أداة دفاع عن الاستقرار الثقافي والاجتماعي.

ثالثًا: تمثّل الحداثة: العقل، الترجمة، والتجريب

في المقابل، يتمثّل الخطاب الحداثي في المناظرات بوصفه دعوة إلى إعادة النظر في المعايير السائدة، دون إعلان القطيعة مع الماضي. ويتجلّى التمثّل الإيديولوجي للحداثة في تمجيد العقل والقياس ، حيث يُقدَّم العقل بوصفه أداة لفهم النص وتطويره، لا مجرد تابع له. والانفتاح على الثقافات الوافدة ، عبر الدفاع عن الترجمة والفلسفة والعلوم الأجنبية، وتقديمها بوصفها إضافة لا نقيضًا للتراث. وأيضا إعادة

تعريف الجودة الأدبية ، إذ يُعاد النظر في مفهوم الفصاحة والبلاغة ، لتشمل الابتكار والتجديد، لا المحاكاة وحدها. غير أن هذا الخطاب الحداثي ظل مؤدلجًا هو الآخر، إذ غالبًا ما ارتبط بالنخبة الحضرية وبمراكز السلطة الثقافية.

رابعًا: الإيديولوجيا بوصفها آلية توفيق لا صدام

تكشف المناظرات العباسية عن إيديولوجيا وسطية تسعى إلى احتواء الصراع بين التقاليد والحداثة بدل تفجيره. فقد جرى تحييد الحداثة الجذرية عبر إلزامها بالاحتجاج بالتراث. وتحديث التقاليد عبر إعادة تأويلها عقلانيًا. وإنتاج خطاب توافقي يسمح بالتجديد المشروط دون المساس بالثوابت الجامعة. وبذلك تحوّلت المناظرة إلى أداة ضبط ثقافي ، لا ساحة ثورة معرفية.

خامسًا: الجاحظ والتوحيدي أنموذجًا للتمثّل الإيديولوجي المركّب

يمثّل الجاحظ وأبو حيّان التوحيدي انموذجين بارزين لهذا التوتر المؤدلج؛ فالجاحظ دافع عن العقل والتجريب، لكنه ظل وفيًّا لسلطة البيان العربي، بينما كشف التوحيدي عن تناقضات المرحلة، دون أن يقدّم بديلًا ثوريًا مكتملًا. وفي كلا النموذجين، تتجسّد الحداثة بوصفها مشروعًا جزئيًا تفاوضيًا، لا قطيعة معرفية. إن التمثّل الإيديولوجي للصراع بين التقاليد والحداثة في المناظرات الأدبية العباسية يكشف عن ثقافة تعيش مخاض التحوّل، وتسعى إلى إعادة تعريف ذاتها دون فقدان توازنها. فالمناظرة ليست ساحة صدام مباشر، بل فضاء لإعادة إنتاج الهيمنة الثقافية في صورة حوار عقلاني. ومن ثمّ، فإن قراءة هذه المناظرات قراءة إيديولوجية تُبرز كيف أسهم الأدب العباسي في صياغة حداثة مبكرة، مشروطة ومضبوطة، ما تزال آثارها حاضرة في الوعي الثقافي العربي حتى اليوم.

المبحث الثالث

أدوات التعبير الايديولوجي في المناظرات العباسية

لم تكن المناظرات في العصر العباسي مجرد حوارات عقلية أو لغوية تهدف إلى الاقناع، بل كانت في كثير من تجلياتها خطابات أيديولوجية محكمة تعبر عن رؤى سياسية، دينية، اجتماعية وطبقية، وقد وظف المتناظرون طيفا واسعا من الأدوات البلاغية والأسلوبية والحجاجية لخدمة أغراضهم الأيدلوجية ، من أبرزها(اللغة البلاغية والمنطق) إذ اعتمدت المناظرات على أساليب دقيقة في المنطق والبيان ، وكذلك (الاحتجاج بالقران والحديث) وكان الطرفان يوظفان النصوص لتثبيت مواقفهم . وأيضا(استخدام الفلسفة والكلام) كما في مناظرات المعتزلة والأشاعرة، وسوف نفصل القول فيها بوصفها اليات لانتاج المعنى السياسي والثقافي وإعادة إنتاج السلطة الرمزية .

أولًا: الاحتجاج بالنص الديني (القرآن والحديث)

يُعدّ النص الديني من أقوى أدوات التعبير الأيديولوجي في المناظرات العباسية، لما يتمتع به من سلطة رمزية عليا لا تُردّ.

١. القرآن الكريم

استُخدم بوصفه مرجعية نهائية لإضفاء المشروعية على الرأي. فكان يتم تأويل الآيات بما يخدم الاتجاه الفكري للمناظر(معتزلي، سني، شيعي، زنديق...). ويظهر ذلك جليًا في مناظرات المعتزلة حول خلق القرآن. ومناظرات الجاحظ التي يوظّف فيها الآيات ضمن سياق عقلي.

٢. الحديث النبوي

استُخدم إما كدليل نقلي قاطع. أو كموضوع للطعن السندي عند الفرق العقلانية. وتحوّل أحيانًا إلى أداة صراع مذهبي أكثر منه نصًا تعبديًا. والدلالة الأيديولوجية لذلك تكمن في أن توظيف النص الديني لم يكن بريئًا، بل يعكس محاولة الهيمنة على "المقدّس" وتحويله إلى خطاب داعم للسلطة الفكرية.

ثانيًا: العقل والبرهان المنطقي

مع ازدهار الترجمة والفلسفة، أصبح العقل أداة مركزية في المناظرات العباسية، خصوصًا عند المعتزلة والفلاسفة وبعض الأدباء العقلانيين، ومظاهر ذلك تكمن في اعتماد القياس المنطقي. وتفكيك حجج الخصم خطوة خطوة. واستعمال مصطلحات فلسفية(الجوهر، العرض، العلة، المعلول). مثال: مناظرات بشر بن المعتمر والنظام التي تجعل العقل حَكَمًا أعلى من النقل. والدلالة الأيديولوجية في تلك المناظرات هي أن العقل هنا ليس أداة معرفية فحسب، بل موقف فكري يعكس انحيازًا ضد السلطة النصية الجامدة.

ثالثًا : اللغة والبلاغة بوصفهما سلطة رمزية

البلاغة في المناظرات العباسية لم تكن تجميلًا لغويًا، بل سلاحًا أيديولوجيًا. وكانت هناك أدواتا بلاغية مركزية مثل السخرية والتهكم(خصوصًا عند الجاحظ). والمفارقة اللفظية. وقلب حجج الخصم عليه. والإطناب أو الإيجاز وفق السياق. اما عن وظيفة البلاغة فكانت تتمحور حول إضعاف الخصم نفسيًا، واستمالة الجمهور، وإظهار التفوق الثقافي.والدلالة الأيديولوجية لهذه الأدات تتمحور حول أن البلاغة تُكرّس الفارق الطبقي والمعرفي بين" العالم" و" الجاهل"، وتُعيد إنتاج سلطة النخبة الثقافية.

رابعًا: التمثيل التاريخي واستدعاء التراث

اعتمد المتناظرون على أخبار العرب وسير الشعراء ومآثر الأمم السابقة (الفرس، اليونان، الروم). وأهم الأمثلة على ذلك مناظرات الشعوبية التي تستدعي مجد الفرس مقابل العرب. والاستشهاد بأخبار الجاهلية أو الإسلام. وقد حققت هذه الأداة الدلالة الأيديولوجية من حيث أن التراث كان يُستعمل لإعادة كتابة الهوية، وتبرير التفوق العرقي أو الثقافي.

خامسًا: المقارنة بين الأمم والثقافات

برزت المقارنة بوصفها أداة إيديولوجية خطيرة، خاصة في مناظرات العرب والفرس. ومناظرات الإسلام والفلسفة اليونانية، وكانت آليات المقارنة هي المفاضلة بين اللغات أو المفاضلة بين نظم الحكم وكذلك المفاضلة بين القيم الأخلاقية. وقد استخدمت هذه المقارنة لترسيخ مركزية ثقافية أو الطعن فيها.

سادسًا: توظيف السخرية والهجاء الفكري

إن السخرية أداة مزدوجة فهي تُضحك الجمهور وتُسقط هيبة الخصم ، فهي عند الجاحظ سعت إلى تحويل الخصم إلى صورة كاريكاتورية و ساهمت في تفكيك الأفكار عبر التهكم بدل المواجهة المباشرة. فكانت الدلالة الأيديولوجية لهذه الأدات تكمن في أن السخرية تُنتج خطابًا إقصائيًا يُلغي الآخر رمزيًا.

سابعًا: السلطة السياسية كمرجعية ضمنية

نجد أن كثيرا من المناظرات كانت تُجرى في بلاط الخلفاء أو تُكتب برعاية السلطة ، وقد أدى ذلك إلى الانحياز الضمني لرأي الدولة(كما في محنة خلق القرآن). وتكييف الخطاب الأدبي مع الموقف السياسي. وبذلك وجدنا أن المناظرة بدأت تتحول إلى أداة تبرير أو مقاومة للسلطة.

ثامنا: الثنائيات القيمية :(نحن/ هم) ،(العقل/ النقل)، (المدينة/ البادية)

جاءت المناظرات غالبا محمولة على ثنائيات قيمية :

- البدو/ الحضر : تمجد الحضارة وتحقر البداوة .
- العرب/ الموالي : تبرر التفاوت الاجتماعي .
- السنة/ الشيعة : تؤسس للشرعية أو تخوين الاخر .
- الفرد/ السلطة : تفضح صورة التابع الخاضع والمتسلط المتبوع

وهذه الثنائيات شكلت أقطابا مهمة في أغلب المناظرات ، ظاهريا أو باطنيا ، فأحيانا كانت تلك الثنائيات ظاهرة في هيئة شخوص تدير المناظرة ، وغالبا كانت مستترة خلف أقنعة رمزية ، أو صور بلاغية .

تكشف دراسة أدوات التعبير الأيديولوجي في المناظرات الأدبية العباسية أن هذه المناظرات لم تكن نصوصًا محايدة، بل خطابات صراعية تُدار عبر أدوات دقيقة: النص الديني، العقل، البلاغة، التراث، السخرية، والسلطة. وهي بذلك تمثل نموذجًا مبكرًا لما يُعرف اليوم بتحليل الخطاب الأيديولوجي، حيث يتداخل الأدب مع الفكر والسياسة والهوية.

الخاتمة:

المناظرات العباسية لم تكن مجرد أدوات علمية، بل كانت منصات للتعبير عن رؤى ايديولوجية شاملة تمس الدين والسياسة والمعرفة، وقد كشفت هذه المناظرات عن عمق التفاعل بين الفكر والسلطة في العصر العباسي، وأسست لمرحلة، من الحوار العقلي لم يعرفها العالم الاسلامي من قبل . كما أسهمت في اثراء علم الكلام، وبلورة العديد من المفاهيم العقائدية، وأدت أيضا هذه المناظرات إلى ترسيخ ثقافة الجدال، وقبول التنوع في الرأي، حتى في ظل السلطة المركزية العباسية . فهي لم تكن مجرد جدل لغوي ، بل كانت مسرحا للتعبير عن الانتماءات الثقافية وتجسيدا للتنوع الاجتماعي والسياسي للعصر، وهي وثائق حية تكشف عن تفاعل الفكر مع اللغة، والهوية مع النص ، وتعد تراثا غنيا لفهم الأدب العربي في أحد أكثر عصوره ازدهارا .

المصادر:

١. أحمد امين/ ضحى الاسلام، مكتبة النهضة المصرية ، ط٩ ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
٢. ابن عبد ربه/ العقد الفريد ، ج٣ ، تحقيق الدكتور محمد قميحة، مكتبة المعارف ، الرياض ، ٢٠١٢ .
٣. ابن المقفع/ كليلة ودمنة، تحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، ٢٠١٢ .
٤. ابن منظور/ لسان العرب ، تصحيح أمين محمد زمحمد الصادق ، دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٩٩ .
٥. الآمدي/ أبو القاسم الحسن بن بشير ، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف، ط٤ ، ١٩٩٢ .
٦. التوحيدي/ ابي حيان، الامتاع والمؤانسة/علق عليه، محمد الفاضلي ، دار الجيل للنشر والطباعة ، بيروت .
٧. التوحيدي/ أبي حيان ومسكويه ، الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، آفاق للنشر والطباعة ، ٢٠١٩ .
٨. العروي/ عبد الله، مفهوم الأيديولوجيا ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط٨ ، ٢٠١٢ .
٩. السبكي/ تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، ج٢ ، ١٩٦٤ .
١٠- السيوطي، تحفة المجالس ، تصحيح محمد بدر الدين النعساني ، دار المعارف ، ط١ ، القاهرة .
١١- المعري/ أبو العلاء، الصاهل والشاحج ، دار صادر ، بيروت .
١٢- باشا/ العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي(دراسة أسلوبية تداولية) ، دار كنوز المعرفة العلمية ، ط١ ، عمان ، ٢٠١٤ .
١٣- شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٨ .
١٤- هالة فتحي كاظم ، صور الابداع في النثر العباسي ، مجلة سيبويه ، ماليزيا ، ع٢ ، المجلد ١ ، ٢٠٢١ .